فكاهات

الكولونيل جيرار [1]

— ٧ —

ولما فرغ الكولونيل جيرار من قصتهِ توقف عن الكلام واطرق الى الارض ساعةً يتفكر ثم رفع رأسهُ فتنفس تنفساً طويلاً وعاد الى حديثهِ فقال

يخطر لي الآن ايها الاعزآء ان اقص عليكم آخر الحوادث التي صادفتني واني لا افكر في ذلك الا اشعر بانقباضٍ في صدري وحزن في نفسي فلا اكاد املك عواطفي ولا اقوى على امساك عبراتي فان كل ما قصصتهُ عليكم من الوقائع والاخبار لم يكن الا موصلاً الى هذا التاريخ الاخير الذي يملأ النفس من الشعور المحزن . ولقد صدق القائل ان الانسان كالارنب يركض في دائرةٍ حتى اذا انتهى الى حيث ابتدأ يقع فيموت ويُنسى . وانني شاعرٌ بما وصلت اليهِ بعد ما لقيتهُ من المهالك وما قاسيتهُ من الاخطار واسمع صوتاً خفيًّا يدعوني للرجوع الى غسقونيا مسقط رأسي لانضم الى رفات آبآئي فلا يبقى بعدي من يروي حوادث تلك الاعصر التي كانت فيها فرنسا عرش مملكة العالم وامبراطورنا المحبوب المالك الوحيد المتسلط على عامة الكرة الارضية . فلا تحزنوا ايها الاخوان اذا ودعتكم ولم تروا وجهي بعد الآن فلكل شيء نهاية ولا بد للانسان مهما عُمّر ان يصل بعد مسيرهِ الى ذلك المنعطف الذي يفضي بهِ الى عالم الابدية وقد سار امامي على تلك الطريق امبراطورنا المحبوب وتبعتهُ مارشاليتهُ فعلامَ ابقى انا . غير اني اودّ قبل مفارقتي اياكم ان اقص عليكم حادثاً ليس من الوقائع الخاصة التي حصلت لي بل هو

(١) بقلم نسيب افندي المشعلاني

تاريخٌ سرّيٌّ ختمت شفتيَّ عليهِ كل هذه المدة الماضية اما الان وقد مضى كل شيء فلم يعد من مانع يمنع ان ابوح بهِ ولا سيما لانهُ يجب تدوينهُ على صفحات التاريخ فاذا دُفن جيرار ودُفن هذا السر معهُ حرم العالم اجمع معرفة حقيقةٍ راهنة ذات اهمية عظيمة

لا بد من العودة معي الى سنة ١٨٢١ وهي السنة السادسة لأفول نجم امبراطورنا المحبوب واحتجابهِ عن عيوننا . ولقد كنا نحن معشر انصارهِ ومريديهِ منذ غاب عنا لا نشعر بشيء من السرور بل كانت افئدتنا رازحةً تحت اعباء الهموم والاحزان لدى تصورنا تلك النفس الابية والعزة السامية في منفاها البعيد تقترب شيئاً فشيئاً الى القبر . ولم تفارقنا افكارنا هذه لا ليلاً ولا نهاراً بل كنا نود من كل قلوبنا ان نسفك آخر قطرةٍ من دمآئنا في سبيل اعادة مجدهِ وسرورهِ وحريتهِ . ولكننا لم نكن نستطيع سوى مساعدتهِ بالفكر فقط والجلوس طول الايام في الاندية نحسب الاميال التي تفصل بيننا ولعلنا لم نكن نقدر على غير ذلك لكوننا فرسان مواقع ولسنا من ابطال البحار . وكان يزيد حزننا وجودنا بدون عمل وآمالنا في العودة الى مراكزنا العسكرية لو عاد نابوليون لاننا لم نكن نرغب في خدمة البوربون ولا بذل يمين الطاعة لهم لئلا يجبرنا ذلك على مناوأة الشخص الذي نعبدهُ والذي نحن لهُ . فبقينا بدون عمل ولا مال نختلف الى مجتمعاتنا فنتبادل الحسرات والتنهدات . وكنا نروي غليلنا بعض الاحيان بمقاتلة بعض افراد الحرس الملكي فاذا قتلناهُ عدنا مسرورين معتقدين اننا انما فعلنا ذلك اخذاً بثأر امبراطورنا العزيز المبعد عنا وعن وطنهِ

وكان لنا نادٍ نختلف اليهِ نحن جماعة الضباط الباقين على ولآء نابوليون فنقضي النهار في الحديث والليل في السمر متوقعين رجوع نابوليون لنسير في ركابهِ ونوصلهُ الى عرشهِ ولاسيما بعد ان طُرد البوربون ثالث مرةٍ من فرنسا . فلما كنا في احدى الليالي من شهر فبراير فتح باب النادي ودخل منهُ رجل نحيف البنية قصير القامة عريض المنكبين لهُ رأسٌ كبير وعلى وجههِ آثار الجراح العديدة يسترها شعر لحيتهِ

الخفيف المرخى كشعور النوتية . وكان في اذنيهِ قرطان من الذهب وكفادُ منقوشتان بالوشم مما دلنا على انهُ من رجال البحرية قبل ان يعرّفنا بنفسهِ انهُ الربان فورنو من بحرية الامبراطور . ولما استقر بهِ الجلوس قدم كتابي توصية لاثنين منا وكنا جميعنا قد اعجبنا ببراعتهِ وتحققنا اخلاصهُ لما سمعناهُ منهُ وعنهُ مما ابداهُ في كثير من المعارك ولا سيما في المعركة البحرية الاخيرة المعروفة بواقعة النيل حين أُحرقت المدرعة اوريان ولم يتركها حتى نسفت ثم غابت في اللجج . وبعد ان تم التعارف بيننا وبينهُ انفرد في جانب الغرفة يسمع حديثنا ولا ينبس ببنت شفة وكان يراقب حركاتنا ويصغي الى حديثنا بتمام الانتباه . وبقي بعد ذلك يتردد علينا في كل مسآء ونحن لا نسمع منهُ شيئاً ولا نرى لهُ الا نظراتٍ احدّ من السيف تجول من الواحد الى الآخر وكانها اسهم تخترق صدورنا لتطلع على ما فيها

وفي ذات ليلةٍ خرجت من النادي ولم ابتعد عنهُ حتى شعرت بيد قبضت على ذراعي فنظرت واذا بالربان فورنو وكان قد تبعني فقادني وسرنا صامتين الى ان ابتعدنا مسافةً ووصلنا الى محل اقامتهِ فقال تفضل وادخل معي يا صاح فان لي كلاماً اقولهُ لك . فتبعتهُ طائعاً ورقينا سلماً اوصلنا الى غرفتهِ فانار مصباحاً ودفع اليّ بطاقةً علمت من تلاوتها انها كتبت منذ بضعة اشهر من قصر شونبرون في ڤينا وفيها ما يأتي

« ان الربان فورنو ساعٍ في قضآء اهم مصالح الامبراطور نابوليون فعلى الذين يحبون الامبراطور ان يطيعوهُ طاعة عميآء ويساعدوهُ بدون سؤال »

« ماري لويز »

وكنت اعرف توقيع الامبراطورة جيداً فلم اشك في صحة الكتابة انها منها . ثم قال لي الربان هل انت واثقٌ بي . قلت كل الثقة . قال وهل انت مستعدٌّ لتتلقى اوامري وتقوم بها قلت نعم . قال سمعتك تقول في النادي انك تعرف الانكليزية فهل تقدر ان تقول لي عبارة في تلك اللغة . فقدحت زناد الفكرة وكلمتهُ فيها بما يدل على رغبتي في خدمة الامبراطور وسفك دمي من اجلهِ . فتبسم عند ما سمع لفظي

وتعبيري ثم قال هذا الكلام لا يسمى انكليزيًّا ولكنهُ على كل حال احسن من لا شيء . اما انا فانني اتكلم بهذه اللغة كابنآئها تماماً لانني قضيت ست سنوات في سجون انكلترا. اما الغرض من مجيئي الى باريس فهو ان اجد مساعداً يمكن الاتكال عليهِ لقضآء امريهم الامبراطور جدًّا وقد قيل لي ان نخبة رجال ذلك الرجل العظيم يجتمعون في النادي فزرتكم وقضيت اياماً افحصكم جميعاً فوجدتك دون سواك الرجل الوحيد اللائق للقيام بمطلوبي . فشكرت تجملهُ وقلت لهُ هل لك ان تعلمني ماذا يُطلب مني . قال اني بعد ان أُطلق سراحي في انكلترا لبثت مقيماً بها وتزوجت فتاة انكليزية ثم جمعت مالاً واشتريت بهِ سفينة تجارية انكليزية توليت تسييرها بين سوثمبتون وشواطئ غينيا وصرت معدوداً بين ذلك الشعب كواحدٍ منهُ . وان حبي للامبراطور لم ينزع من صدري فانا اقضي اكثر اوقاتي وهو لا يغيب عن فكري واحب ان يكون لي رفيقٌ يشاطرني تلك الافكار ولا سيما في عزلة البحر ووحدتهِ فاطلب منك ان تصاحبني بضعة اشهر وسأشاطرك غرفتي وأؤكد لك اننا سنسرّ جدًّا بتسلية احدنا الآخر . وكان يقول ذلك وهو يرمقني بنظرٍ كانهُ مصباح كهربآئي يدفعهُ الى اعماق صدري ليقرأ ما يجول في فكري . ثم اخرج من جيبهِ كيساً ثقيلاً من النقود وضعهُ امامي وقال في هذا الكيس مئة قطعة ذهبية أعدد بها ما يلزمك من حوائج السفر وان سمعت نصحي فلا تبتع شيئاً الا في سوثمبتون ولا تنسَ ان مركبي يدعى الاوزّة السوداء . اما انا فسأرجع الى سوثمبتون غداً وانتظرك الى اواسط الاسبوع القادم لنقلع من هناك . قلت سمعاً وطاعةً ولكن هل لك ان تفيدني عن الوجهة التي سنقصدها . قال اظنني اعلمتك اننا نقصد شواطئ غينيا الافريقية . قلت وكيف يتعلق سفرنا هذا بمايهم الامبراطور . قال يهم الامبراطور جدًّا ان لا تسألني عن امور لا يمكنني ان اجيبك عنها . ولما قال هذا حوّل ظهرهُ فعلمت ان المقابلة قد انتهت فخرجت وسرت الى غرفتي وانا متعجب مما حصل ولو لم اشعر بثقل كيس النقود وأَرَ ذهبهُ الوهاج لم اكذّب انني كنت في حلم

لا اظنكم تجهلون اقدامي على تجشم المشاق ورغبتي في اقتفآء اثر الحوادث وقد

رأيت في ما ذكرت دافعاً يجبرني على تتبع الامر الى آخرهِ ولا سيما وان فيهِ شيئاً يتعلق بالامبراطور فلم البث ان تأهبت للسفر وتركت باريس في الاسبوع التالي فبلغت سانت مالو وابحرت منها الى سوثمبتون • ولم اصادف صعوبة في معرفة الاوزّة السودآء فذهبت اليها ووجدت على ظهرها عدة نوتية ضخام الاجسام يعدونها للسفر وقد وقف الربان فورنو يلقنهم الاوامر ويلاحظ اعمالهم . فلما رآني قابلني مصافحاً ثم اخذني الى غرفتهِ الخصوصية وقال لي يجب ان تكون من الآن المسيو جيرار لا الكولونيل وان تجتهد في نسيان حركاتك العسكرية ويحسن بك ان تقصر شاربيك وتطيل لحيتك تمثلاً برجال البحر . فاستأت من كلامهِ الاخير جدًّا ولكنني عدت فافتكرت انهُ لا يكون معنا في هذا السفر احد من ربات الجنس اللطيف فلا بأس من تشويه منظري بتقصير شاربيَّ . ثم قرع جرساً فاتاهُ فتى قوي البنية تدل هيئتهُ على الاقدام والجسارة فقال لي هذا وكيلي غستاف وكاتم اسراري فثق بهِ ثم اشار اليَّ وخاطب غستاف قائلاً ان صديقي المسيو جيرار يرافقنا في هذه السياحة فحافظ عليهِ كشخصي تماماً . وبعد ذلك قادوني الى غرفتي بجانب غرفة الربان فألفيتها في غاية الرحب والاتقان ولا تنقص عن تلك الا في نفاسة فرشها فعلمت ان الربان مترفه جدًّا لما رأيت في غرفتهِ من المفروشات الحريرية والاثاث الثمين الذي يضاهي ما كنت اراهُ في اللوفر . فعجبت جدًّا وبهرت مما رأيتهُ فيها من الآنية الفضية والذهبية واستكبرت ذلك على ربان مركب تجاري ولكنني كنت اعي كل ما ارى واسمع في صدري فانظر نظر المتقد المحترس . وعلمت انهُ يوجد على ظهر المركب الربان وثانيهِ وثالثهُ وتسعة من النوتية بينهم فتًى ومنهم ثلاثة بصفة سائحين نظيري . ولم يخفَ عليَّ استغراب ثاني الربان لسفري لانهُ قابلني مرةً فقال لي ما غرضك من المجيء معنا قلت هو مجرد السياحة . قال وهل سافرت الى الشواطئ الغربية قبل الآن قلت لا . فقال متبسماً ولا اظنك تعود الى ذلك مدى العمر

وبعد ثلاثة ايام من وصولي الى سوثمبتون اقلعت بنا السفينة فما بلغت بنا عرض

البحر حتى شعرت بدوارٍ لاني لم اعتد ركوبهُ فلزمت غرفتي الى اليوم الخامس حتى الفت حركة السفينة وخف عني الدوار فخرجت من غرفتي الى ظهر المركب وهب في وجهي نسيمٌ عليل اعادني الى صحتي العادية . وكان شعر وجهي قد اخذ في النمو فكنت اجول بين النوتية واساعدهم ولا اشك انني كنت اكون بحريًّا ماهراً لو دخلت في تلك الخدمة من اول حياتي لان الربان فورنو نفسهُ شهد لي وأُعجب ببراعتي في سحب الشراع وادارة السكان (الدفة) واعمال المجاذيف . اما اكثر اوقاتي فكنت اصرفها في غرفة الربان حيث اشاركهُ في تقطيع الوقت بالالعاب ورأيت لزوم وجودي معهُ لانهُ لم يكن في جميع رجالهِ من يحسن القرآءة او الكتابة فكان يخطر لي انهُ لو مات ذلك الربان لتهنا في الاوقيانوس الواسع ولم يوجد من يعرف اين نحن ولا الى اين نسير . وكان في غرفتهِ خريطة يرسم عليها كل يوم النقطة التي بلغناها فكنا نعرف منها كيف نسير واين نحن . وقد استغربت جدًّا مهارتهُ في معرفة ذلك ونحن بين المآء والسمآء لا جبال يستدَلّ منها ولا سهول تُستقرَى فيها الآثار ومع ذلك فانهُ تنبأ لي في ذات صباح فقال اننا سنمر امام الرأس الاخضر بعد غروب الشمس فكان كذلك وما اظلمت الدنيا حتى رأينا انوار ذلك الرأس الى يسارنا . ولكننا ما اصبحنا حتى كنا قد ابتعدنا عنهُ وعدنا الى التيه فوق سطح اليم واعلمني ثاني الربان اننا لا نرى البر بعد ذلك الا متى وصلنا الى خليج بيافرا الذي نقصدهُ لمشترى زيت النخل مقايضةً بما تشحن السفينة من الانسجة المصبوغة والاسلحة القديمة والخرز الذي يتاجر به المتوحشون . واتفق ان هدأت الريح فكنا نحمل على غارب الامواج متقدمين الى الجنوب ونحن لا ندري عن محل وجودنا الا ما كان يرسمهُ فورنو على الخريطة المتقدم ذكرها

وبعد نحو ثلاثة ايام رأيت ثاني الربان قد بانت عليهِ علائم القلق واشتغال البال فكان ينتقل من فحص الخريطة الى النظر في الافق وهو كالمأخوذ . وفي ذلك المسآء كنت مع الربان في غرفتهِ نلعب بالورق فاذا بهِ قد دخل فجأةً وعلى وجههِ امارات الغيظ فقال للربان هل تعرف الجهة التي نسير فيها . فقال الربان بدون انتباه

نحن سائرون الى الجنوب يا صاح . قال ولكن كان يجب ان نتجه شرقاً لانني اعرف الطريق تماماً وقد سلكتها مذ كنت فتًى وأعلم الآن اننا لسنا في الخط الذي يجب اتباعهُ . فرمى الربان بورقهِ الى المائدة ونهض اليهِ فقال لهُ تعال اريك الخط الذي نحن سائرون فيهِ على الخريطة فتبعهُ ذاك ووقف الاثنان ينظران اليها . فقال الربان هذا هو الشاطئ الذي نقصدهُ وهذا هو المحل الذي نحن فيهِ وهذا هو الرجل الذي يحكم مركبهُ حكماً لا ينازَع فيهِ . ولما قال هذا قبض على عنق الرجل بكلتا يديهِ حتى لم يستطع ذاك ان ينطق ببنت شفة فسقط الى الارض فاقد الرشد . ودخل في تلك الدقيقة وكيل الربان غستاف فشد وثاقهُ وسد فاهُ بمنديل حتى اصبح المسكين بين ايديهما كقطعةٍ من خشب لا ارادة لهُ ولا حراك . وكان بودهما ان يلقياهُ في البحر فلم احتمل مثل ذلك الظلم وتداخلت في امرهِ فاذعن لي الربان وبعد ان تحقق وثاقهُ بنفسهِ نقلهُ بمساعدة وكيلهِ الى احد مخازن المركب والقاهُ بين صناديق البضاعة . ولما فرغا من هذه المهمة قال الربان لوكيلهِ غستاف لا ينبغي ان نترك العمل بعد ان بدأنا بهِ فارسل لي الربان الثالث في الحال . وبعد بضع دقائق دخل الشخص المطلوب وما كاد يبلغ منتصف الغرفة حتى اطبق عليهِ الربان وغستاف ففعلا بهِ كما فعلا بالاول وبعد ان اوثقاهُ وثاقاً شديداً القياهُ في المخزن الى جانب رفيقهِ . ثم عاد اليَّ فورنو فقال انهُ لم يكن بدٌّ من هذا العمل ولكنني كنت اوثر تأخيرهُ لو لم تقضِ بهِ الضرورة . ثم نظر الى غستاف وقال لهُ خذ برميلاً من البرندي للنوتية وقل لهم يشربوا على صحة ربانهم فبذلك نأمن شرهم . اما رجالنا فاجمعهم الى غرفتك لنكون على ثقة من عزمهم على العمل ولا تؤاخذني يا حضرة العزيز جيرار على ما حصل وتعالَ نتمم اللعب

وعجبت جدًّا عند ما رأيت هذا الرجل الحديدي قد عاد الى اللعب بتمام السكينة كأنهُ لم يحصل شيء البتة فعدنا الى ما كنا عليهِ وكنا نسمع ضجيج النوتية على اثر المشروب الذي ارسلهُ لهم فورنو . وما زلنا سائرين والريح تدفع مركبنا ببطء الى الهزيع الرابع من الليل فنهض فورنو وقال اظن ان النوتية قد اصبحوا في حالة توافق

غرضنا فلمّ بنا . ولما قال هذا فتح صندوقاً اخرج منهُ مسدسين ناولني واحداً منهما وسار امامي فتبعتهُ الى حيث كان النوتية فلم نلقَ بينهم اقل مقاومة لان الانكليزي اذا كان صاحياً فهو اسدٌ لا يغلب ولكن اذا وضعت امامهُ الشراب ابى الاكتفآء منهُ وتناولهُ بشرهٍ قد يفضي بهِ الى الموت . ولما دخلنا الغرفة المجموعين فيها وجدنا خمسة منهم قد اصبحوا كالاموات واثنين في نهاية السكر يصيحان و يغنيان كالمجانين . وكان غستاف قد اعد حبالاً فاندفعنا على الثلاثة وبمساعدة اثنين من النوتية الذين كانوا سائحين نظيري تمكنا من ايثاق جميع النوتية في وقت قصير والقيناهم الى الغرفة لا يبدون حراكاً ولا ينطقون بكلمة ووكلنا غستاف بهم وهكذا اصبح المركب بكل ما فيهِ تحت امرتنا بدون ادنى معارض . ولو صادفنا هياجٌ في البحر لافتقرنا الى مساعدين بالرغم عنا ولكن الاحوال ساعدتنا وكان البحر هادئاً فكان المركب يمخر بنا بسهولةٍ كالعادة في ساحة المخاصرة . وما زلنا على هذه الحالة الى اليوم الثالث فصعدت من غرفتي الى ظهر المركب فوجدت الربان فورنو ينظر الى الافق عن جانب المركب ولما شعر بي ناداني وقال هل ترى شيئاً يا عزيزي جيرار . فحدقت ببصري فرأيت شيئاً يظهر عند حد البحر كغيمةٍ مرتفعة من المياه فقلت لهُ ارى شيئاً ولا اعلم ما هو . قال هذا هو البر الذي نقصدهُ . قلت واي برٍّ تعني . قال ارض جزيرة القديسة هيلانة

وما قرعت اذنيَّ كلماتهُ وفهمت ذلك الاسم حتى شعرت بقوة كهربآئية اصابني مجراها فاهتزّ لها جسمي وتصورت الجزيرة قفصاً قد حبسوا فيهِ نسرنا الفرنسوي وان كل تلك المسافة والاميال البحرية لم تمنع جيرار من الاقتراب الى مولاهُ الذي يحبهُ . فشعرت ان عينيَّ تودّان الخروج من وجهي لتطيرا الى تلك الجزيرة ورفعت ذراعيَّ الى الهوآء كانني اود ان ادفع المركب ليصل بسرعة فاقابل نابوليون المحبوب واخبرهُ انهُ لم يُنسَ وانهُ بعد ذلك الغياب الطويل قد تبعهُ احد عبيدهِ الامنآء واشدهم اخلاصاً . ولم اعد استطيع تحويل نظري عن تلك الجهة حتى غابت الشمس واشتدّ الظلام فلم اعد ارى شيئاً فجثوت على ظهر المركب موجهاً نظري الى تلك الناحية

يخترق الظلام الدامس حيث ترآءى لي اني ارى امبراطوري المحبوب . ومرّت عليّ ساعاتٌ وانا على تلك الحالة فرأيت نوراً ضعيفاً ينبعث من ذلك البعد فمددت ذراعيّ اللتين وان كانتا ذراعي الكولونيل جيرار فهما تنوبان عن فرنسا باسرها

وكان الربان فورنو قد امر فاطفأوا جميع مصابيح المركب وشد النوتية حبل الشراع الاوسط فوقف مسيرنا ثم ناداني فورنو الى غرفتهِ واقفل بابهُ . ولما جلسنا بدأ بحديثـهِ فقال لا شك انك ادركت كل شيء يا عزيزي جيرار وارجو منك المعذرة على اني لم اطلعك على الحقيقة منذ البدآءة لانني في المهام الضرورية لا اعتمد على ثقة احد . فاعلم انني من زمن مديد اسعى في انقاذ امبراطورنا العزيز ولم يكن بقآئي في انكلترا ومخالطتي شعبها الا تسهيلاً لادراك هذه الغاية وقد تم كل ذلك حتى الآن على ما اريد . وكنت قد استحضرت غستاف والنوتية الثلاثة الذين من حزبنا بعد طول الاختبار والفحص . اما احضاري اياك فلم يكن الا لاعتمد على بطل مجرب لو صادفنا ما لم يكن في الحسبان وليكون للامبراطور رفيقاً يليق بهِ في رجوعهِ الى الوطن . ولم ازيّن غرفتي بهذه المفروشات والمعدات الا لاستقبالهِ ولي الامل الوطيد انهُ لا تبزغ شمس الصباح حتى يكون جلالتهُ في هذه الغرفة ويكون المركب بعيداً عن هذه الجزيرة

ولا اصف لكم ما تردد في فكري من الشعور والعواطف عنـد سماعي ذلك فعانقت فورنو مليًّا حتى كدت اوقعهُ الى الارض. ثم سألتهُ عن الطريقة التي يرجو مساعدتي لهُ فيها فقال انني افوض اليك كل شيء وكنت اود ان اكون انا الاول في تقديم اخلاصي لجلالتهِ ولكن ليس من الصواب ان اترك مركزي هنا لان دلائل الجوّ تشير الى امكان حصول زوبعة شديدة بعد قليل . وفوق ذلك فان على جانبينا ثلاث طرادات انكليزية ونخشى ان تطبق علينا فجأةً فمن الواجب ان ابقى على حراسة مركبي ريثما تأتي انت بالامبراطور . فأثرت فيّ هـذه الكلمات حتى ترنحت كالسكران وصحت قائلاً فما الذي ينبغي لي ان اصنعهُ الآن . قال قد انزلنا قارباً صغيراً تركب فيهِ ولكنني لا اقدر ان استغني الا عن نوتي واحد يوصلك

الى الشاطئ وينتظر عودتك فاذا بلغت الشاطئ فاقصد ذلك النور الذي تراهُ امامنا فهو نور البيت الموجود فيهِ نابوليون وكل من فيهِ من اصفيآئنا الذين يُعتمد على مساعدتهم في خلاصهِ . ويعترض طريقك حاجز من الحرس ولكنهُ بعيد عن البيت فاذا اخترقته وبلغت محل قصدك فاطلع الامبراطور على خطتنا وسر بهِ الى القارب واحضرهُ الى هنا

وكنت اتلقى اوامر صديقي فورنو بسرور واعجاب لان نابوليون نفسهُ لم يكن يعطي اوامرهُ باكثر منهُ اختصاراً ووضوحاً . ورأيت انهُ يجب ان لا نضيع دقيقة واحدة وكان القارب والنوتي في انتظاري فوثبت الى القارب فاندفع بنا فوق تلك المياه المظلمة وهو كريشةٍ في مهب الريح . وكان نظري الشاخص الى النور المنبعث من البيت المذكور قد منعني من الافتكار بغير ذلك فلم انتبه الى نفسي الا عند ما لامس القارب البر . وكانت تلك الناحية مقفرة لم نسمع فيها حركة فتركت القارب لحراسة النوتي واخذت في تسلق الرابية الصخرية . وكانت المواشي التي ترعى في تلك الناحية قد تركت لها طريقاً هناك اهتديت بهِ وتبعتهُ حتى بلغت باباً لم يكن عليهِ حرس فولجتهُ فافضى بي الى باب آخر دخلتهُ ايضاً وانا اعجب من عدم مصادفتي الحرس الذين ذكرهم فورنو . ثم ابرق لي النور ثانيةً فطارت نفسي شعاعاً واجتهدت في التستر ما امكن وأعرت اذناً صاغية فلم اسمع اقل حركة . ثم تقدمت ببطءٍ فظهر لي البيت فوجدتهُ منخفضاً مستطيلاً لهُ رواق ورأيت رجلاً يسير ذهاباً واياباً امام المدخل فانسللت بخفةٍ لأتبينهُ وقد ظننتهُ ذلك اللعين هدسن لو حاكم الجزيرة وكنت مسروراً بمجرد افتكاري في خلاص الامبراطور والانتقام لهُ . ولكنني ما عتمت ان رأيت ذلك الشبح قد وقف امام نافذةٍ ينبعث منها النور فوجدتهُ راهباً فعجبت من وجودهِ هناك في الساعة الثانية بعد نصف الليل ووددت لو اعلم هل هو فرنسويّ ام انكليزي وهل هو من اصفيآئنا الذين ذكرهم فورنو . ثم تقدمت ايضاً وفي تلك الدقيقة فتح الكاهن باباً ودخل الغرفة وكانت منوَّرة فعلمت ان ساعة العمل قد ازفت ولا ينبغي اضاعتها فانحنيت واسرعت حتى بلغت النافذة

ورفعت رأسي واسترقت النظر الى الداخل فوقعت عيني على الامبراطور متوسداً سريرهُ وقد فارق الحياة

وتوقف جيرار عن الكلام هنيهةً ريثما مسح دموعهُ ثم قال اعذروني ايها الاعزآء فانني لا ازال اشعر بتلك الضربة التي زعزعت جسدي الحديدي ولما رأيت ذلك المنظر سقطت الى الارض كأن رصاصةً اخترقت صدري ورأسي وانا متعجب من وجودي حيًّا بعد تلك الساعة. ولكنني لبثت منطرحاً على الارض نحو نصف ساعة ثم نهضت بارتعاش وكانت اسناني تصطكّ وعيناي الغائرتان شاخصتين كعيون المجانين الى غرفة الموت . وكان بطلنا المحبوب ملقىً على نعش في وسط الغرفة وقد ارتسمت على وجههِ امارات الهدو والسكون والعظمة فلم تفقد هيئتهُ تلك القوة الفائقة التي كانت تنفخ في قلوبنا نار القوة ابان الحرب . وكانت شفتاهُ قد انفتحتا بتبسم لطيف وعيناهُ لم تكونا مطبقتين تماماً فظهرتا كأنهما تنظران اليَّ . اما جسمهُ فكان اسمن مما رأيتهُ آخر مرة في واترلو وبالاجمال فقد كان مثال الهيبة والوقار . وكان على جانبي النعش شموعٌ موقدة وهي التي ظهر لنا نورها في عرض البحر وكان دليلنا اليهِ وحسبناهُ نجم السعادة والامل

ولما بدأت املك رشدي رأيت اشخاصاً كثيرين جاثين في غرفة الميت وتبينتهم فاذا هم رجال بلاطهِ الصغير في ذلك السجن المميت وبينهم برتران وزوجتهُ والكاهن ومتولون وغيرهم . وخطر لي ان ادخل فاجثو بجانبهم واصلي عن تلك الروح الشريفة غير ان دعة الصلاة لم ترافقني في ذلك الموقف وعلمت انهُ يجب عليَّ الاسراع في الرجوع ولكن كيف ارجع ولا اترك علامة تدل على وجودي . ولما خطر لي ذلك لم اعد اهتم بالحاضرين فانتصبت امام قائدي الميت واقفاً الوقفة العسكرية ورفعت يدي الى رأسي محيياً التحية العسكرية الاخيرة ثم حوّلت ظهري وسرت تخفيني الظلمة وقد رُسم على شبكية عيني ذلك الوجه المصفرّ والشفتان المبتسمتان والعينان الحزينتان

وبلغت البحر وانا اظن انني لم اغب الا بضع دقائق فلم انتبه الى تضجر النوتي من طول غيابي . ولما ركبنا القارب كانت قد هبت ريح عاصفة رفعت امواج اليم

لمقاومتنا فكنا كلما اجتهدنا في الابتعاد عن الشاطئ ترجعنا اليهِ الامواج و بعد المحاولة مراراً رفعتنا موجة فالقتنا على صخرٍ ثقب قعر القارب فدخلتهُ المياه واضطررنا الى الانتظار بجانبهِ على ذلك الصخر الى ان لاح الفجر فلم نقف للسفينة على اثر. فعدت الى تسلق الصخور الشاهقة لعلي اعرف ما صارت اليـهِ فلم يظهر لي ادنى اثر على سطح ذلك الاوقيانوس المتسع ولم اعلم هل غرقت او تمكن نوتيتها الانكليز من قطع قيودهم وامتلكوها وكان ذلك آخر عهدي بها و بالربان فورنو الذي كنت اشتهي جدًّا ان اقابلهُ لاطلعهُ على ما كان من امر مهمتي . ولما قطعنا الامل من النجاة سامت نفسي ورفيقي الى الانكليز بحجة اننا كنا مسافرين وانكسرت سفينتنا ولم ينجُ منها احد سوانا فقبلونا باكرامهم المعتاد واضافونا بكرم عظيم ولكنهُ لم يتسنَّ لي ترك الجزيرة في الحال بل اضطررت الى البقآء فيها عدة اشهر قبل ان تيسر لي مركب اقلني الى الارض التي لا يرى الفرنسوي سعادة وسروراً الا فيها

والآن ايها الاعزآء قد اخبرتكم كيف ودعت مولاي الوداع الاخير فيجب ان اودعكم ايضاً شاكراً اصغآءكم لحديثي وشعوركم مع جندي قديم كسير القلب . واراكم صحبتموني الى روسيا وايطاليا والمانيا واسبانيا والبرتوغال وانكلترا ورأيتم معي ما رأيت وما قاسيت وعلمتم شيئاً عن ابطال تلك الايام الذين كانت تهتز الارض لوقع اقدامهم فاحفظوا هذه الذكرى و بلغوها لبنيكم بعدكم فان ذكرى تلك الاعصر لاعظم كنزٍ يفاخر بهِ الجندي ويتركهُ كاعظم ارثٍ لبنيهِ . وسأفارقكم الآن عائداً الى غسقونيا مسقط رأسي غير انني اترك لكم كلماتي هذه وانا متعزٍّ بانهُ متى مات الكولونيل جيرار وفقد تنفسهُ وصوتهُ واشاراتهُ فلا تزال اعمالهُ تتلى بينكم وذكراهُ تعاد في اجتماعاتكم فعلى هذا الامل وبهذا الرجآء يقف الكولونيل جيرار الجندي القديم امامكم ايها الاصحاب ليقول لكم استودعكم الله